الوعي . الهوية . الآخر

(مقاربة في رواية نار ونور لعبد الملك مرتاض)

د / وذنـــاني بوداود
جامـــعة عمار
ثليجي الأغواط

تـــمهيد :

يحتل العمل الروائي في المشروع الإبداعي لدى عبد المالك مرتاض مكانة خاصة، فهو يرتبط برؤيته الفكرية للواقع والإنسان والأشياء، سواء ماكان منه مرتبطا بأحداث الوطن وتاريخه أو بالإنسان وأحلامه وحقيقة وجوده وعلاقته بالآخر وصراعه معه . فقد كتب في مجال العمل الإبداعي العديد من الأعمال الروائية نذكر منها رواية (دماء ودموع) ورواية (الخنازير) ورواية (صوت الكهف) وغيرها من الروايات التي تعالج واقع المجتمع الجزائري في فترات مختلفة من مسيرته في العصر الحديث . وقد اخترنا من بين تلك الأعمال رواية [نار ونور] لأن موضوعها يتناول فترة مقاومته للمستعمر الفرنسي .

وفي البداية تجب الإشارة إلى ثلاثة ملاحظات أساسية نرى أنها من الضروريات وهي .

الملاحظة الأولى : أن هذه الرواية قد كتبت بعد الاستقلال بفترة وجيزة، أي في فترة نشوة الانتصار على الآخر المستعمر.

الملاحظة الثانية : أنها تعتبر من روايات مرحلة التأسيس للفن الروائي في الأدب الجزائري، فهي من الروايات الأولى .

الملاحظة الثالثة : أنها تتناول نضال الشعب الجزائري في فترة حاسمة من تاريخ الشعب الجزائري وهي فترة ثورة التحرير .

وانطلاقا من الملاحظات السابقة يمكننا القول أن هذه الرواية محكومة بخصوصية خاصة، وهي جدلية الصراع بين الأنا الوطني والآخر المستعمر، وبذلك فهي خطاب تشكل في فترة هيمنت عليها نشوة الانتصار على الآخر . أي فترة ما بعد الاستقلال . ومن هنا جاءت تحمل تلك الطموحات التي كانت تدفع المبدعين إلى الإشادة ببطولات الشعب الجزائري أثناء ثورة التحرير وتجسيدها فنيا، لذا تعد تعبيرا فنيا صادقا يتناول أحداثا تاريخية من وجهة نظر خاصة.

رواية نار ونور

تعتبر هذه الرواية من بين الروايات الأولى التي كتبها الدكتور عبد الملك مرتاض في مرحلة التجريب في الأدب الجزائري الحديث فقد صدرت في نوفمبر 1975 م ولهذا التاريخ أهميته في حياة المجتمع الجزائري، فهو تاريخ يصادف نشوة الانتصار على الآخر المستعمر .لذا جاءت تحمل هموم الإنسان الجزائري أيام الاستدمار الفرنسي ومقاومته له .

وبذلك فهي تعالج قضية هامة وجوهرية في نضال الشعب الجزائري ألا وهي قضية الكفاح المسلح من أجل الحرية والاستقلال . وإن كانت لا تأخذ أهميتها من طرحها لهذه القضية ـــ والتي تناولها الكثير من الكتاب الجزائريين في أعمال سردية متنوعة، ومن وجهات نظر مختلفة بعيد الاستقلال ـــ بل من الدور البطولي الذي أسندته لفئة الشباب الجزائري في تلك المرحلة من نضال الشعب الجزائري في تاريخه الحديث .ومن ذلك الفضاء المكاني الذي اختاره الكاتب مصرحا للأحداث وهو المدينة . فعالم هذه الرواية هو عالم الذات الشابة الواعية بهويتها الأصيلة وبدورها النضالي من أجل تحقيق إرادة شعبها، مؤكدة للآخر بأنها قادرة على تحقيق ما تريد دون الخوف من طغيانه وجبروته وقوته .والكاتب في هذه الرواية يتكئ على أحداث الثورة لربط المتخيل الروائي بحقيقة واقع الإنسان الجزائري . وذلك لأن ثورة التحرير بأحداثها

المتلاحقة اكتسبت (صفة المرجعية الأساسية في بنية الحدث الروائي وفضاءاته المتداخلة)[1] وهي حقيقة تأكدت من خلال مجموعة من النصوص الروائية الجزائرية الحديثة .

فرواية نار ونور مثلها مثل روايات مرحلة التأسيس التي كانت شديدة الارتباط بفترة الثورة حيث ركزت على تسجيل بطولات الأمة ومآثر الشعب من أجل نقلها للأجيال اللاحقة . فقد عمل النص الروائي التأسيسي على تعميق الوعي بالهوية الوطنية، وهو عمل يؤكد مدى فهم أولئك الكتاب لدور الأدب الوطني في صقل الشخصية الوطنية . ووفق هذا المنظور تأتي أهمية رواية نار ونور لارتباط مضمونها بمقاومة المدن الجزائرية للمستعمر الفرنسي. وأن الفكرة القابعة في لا وعي النص هي النضال الثوري .

فرواية نار ونور كخطاب تخيلي تروم تأسيس علاقة مع التاريخ دون أن تكون تاريخا، وإن كانت تحمل ومضات منه . فالنص من بدايته يحيل على زمن قد مضى تتجلى أحداثه في ثورة الشعب الجزائري على المستعمر الفرنسي .

وهنا يمكننا القول بأنه كلما ارتبط النص الأدبي بقيم نبيلة تخدم الإنسانية كلما حفر في مجرى التاريخ لوحة للدلالة على أن محمولاته لاتزال حية . ونص كهذا لا يموت ولا يندثر ولايتجاوزه الزمن حتى وإن تراء للمتلقي ذلك لأن هناك خفايا في النص تبقى نابضة بالحياة تشهد على أن الحقيقة التي يحملها لاتزال تفرض حضورها على المتلقي .لازالت تتجلى له من خلال الكلمات والعبارات . وبما أن هذه الرواية جاءت مرتبطة الصلة بالتاريخ وبالهوية، كان ولابد أن يؤدي بنا ذلك إلى الحديث عن علاقة الرواية كتخييل فني بالتاريخ وأحداثه .

إشكالية الخطاب الروائي والتاريخ :

يذهب الروائي العربي صنع الله إبراهيم إلى أن (المؤرخ الجيد هو الروائي... وأن الكاتب الروائي يستطيع أن يجعل روايته تاريخا)[2] وهذا الزعم من روائي عربي كبير يتوافق وقول ناقد وروائي عربي آخر حين قال (إن الروائي العربي المعاصر قد أصبح ـــ اليوم ـــ هو (المؤرخ الحقيقي) لكثير من أحداث الأمة وقضاياها)[3] إن مثل هذا الزعم يثير لدى المتلقي جملة من التساؤلات من بينها :

ـــ هل هناك علاقة بين التخييل الروائي والتاريخ ؟

ـــ وهل يمكن اعتبار الأحداث التي يتناولها الروائي تاريخا؟

من المعلوم أن انفتاح الخطاب الروائي على التاريخ لا يعني بأية حال من الأحوال أن الروائي قد أصبح مؤرخا. فالكاتب قد (يعود إلى لحظة في الماضي لاستكشاف الحاضر وفهمه، وهو قد يعود إليها كسند في مواجهة وطأة الحاضر)[4].

وتلك العودة لا تعني أن الروائي يكتب تاريخا بالمفهوم الدقيق، وذلك لسبب بسيط، هو أن هشاشة التخييل الروائي لا يمكنها أن تستوعب صرامة العقل التاريخي .فالخطاب التاريخي هو خطاب موضوعي، بينما الخطاب الروائي هو خطاب تخييلي . حيث أن الروائي يقوم بنقل الأحداث من سياقها الموضوعي إلى سياق آخر فني .

ومن هنا فصرامة التاريخ تحتم على الكاتب تجاوز مواقف شخصياته بحيث يودعها معارف قد تكون أكبر منها . فـ(ليست الكتابة الروائية عند الروائيين عملية تتم دون خطورة، وهاته الخطورة تأتي من جهة التاريخ، الذي تتصرف فيه كمادة، ومن جهة الرواية ذاتها، والتي تتخيل المادة التاريخية ووما تصنعه الرواية هنا هو تعصير الماضي)[5]

لذا فتواصل الروائي مع التاريخ لا يتم بسهولة نظرا لصرامة التاريخ وخطورته، وبهذا الفعل يكون الكاتب قد أدرك مقتضيات التاريخ التي تحتم على الكاتب العمل دائما على إحياء الضمير الجمعي للأمة . وعندما نعود لرواية نار ونور نجد أن قصد الكاتب من وراء تثوير التاريخ في هذه الرواية هو القبض على حركة المجتمع المتسارعة أثناء صراعه مع الآخر . لذلك جاءت شخصية بطل الرواية شخصية متواصلة مع تاريخها، عاملة على إحيائه لكي تتمكن من تحصين نفسها، ومواجهة الأساليب القمعية التي سلطها عليها الآخر .وبذلك تظهر تمسكها بهويتها وحضارتها ومواجهة حضارة الآخر[6] .

فسعيد بطل الرواية عندما يواجه الضابط الاستعماري يواجهه وهو متسلح بوطنيته ومعتز بهويته، فهو ينتفض في وجه الضابط قائلا : (على أني أؤكد لكم يا سيادة الضابط الشهم، أنني إن قتلت اليوم فلن أقتل وأنا أدافع عن كرامة فرنسا، كما فعل أبي ووإنما سأقتل دفاعا عن الجزائر .فقد آن للجزائريين أن يموتوا من أجل جزائرهم، كما ماتوا من أجل غيرها .)[7]

والملاحظ أن صورة الآخر في هذا العمل الإبداعي جاءت تحمل كل صور الظلم والتسلط والقهر والغدر والسيطرة ومصادرة هوية الأنا الوطني، وهو ما يتوافق مع رؤية وموقف الكاتب من الآخر .

رؤية الكاتب وموقفه :

إذا كانت (الرؤية هي خلاصة الفهم الشامل للفاعلية الإبداعية في نواحي النسج والبنية والدلالة والوظيفة)[8]

وأن الموقف الروائي هو وجهة نظر فكرية يتبناها الكاتب في أمر من الأمور المتعلقة بالحياة . فإننا في هذه الحالة لابد وأن نذهب إلى أن الرؤية الفكرية المجسدة في هذه الرواية هي رؤية الكاتب دون غيره، لأن الكاتب لا يمكنه أن يتخلص من الثقافة التي

ينتمي إليها ولو أراد ذلك . وعليه يمكننا القول أن رواية (نار ونور) هي تعبير عن رؤية صاحبها وموقفه من أحداث تاريخية تتعلق بمجتمعه، رؤية تحمل موقفه من الآخر ومن الفترة الزمنية التي يكتب عنها .

فالكاتب يقف موقفا إنتقاديا من الواقع الذي كان قائما آنذاك، فهو يرى بأن قوة الشر والظلم والعبودية لا يمكنها أن تصمد وتستمر طويلا، مهما استعملت من أساليب البطش ومن الحيل والمغريات . لذا يقوم بالكشف عن عيوبها وسلبياتها . ويحقق ذلك من خلال وصفه لجيش العدو (وكانت هذه الكتائب من أضرى كتائب الجيش الاستعماري، فإنها كانت تتألف من رجال المظلات . ويا للمظليين الاستعماريين في الجزائر، وما ارتكبوا من جرائم، وما اقترفوا من آثام، وما ذبحوا من أطفال، وما استحيوا من نساء، وما مثلوا به من رجال، وما قطعوا من أشجار، وما هدموا من منازل ومساجد، وما أحرقوا من أرض وغاب .)[9]

هكذا تتجلى صورة الآخر، في نظر الكاتب وهي تتلبس بكل أنواع الغدر والظلم والتسلط واللا إنسانية .

وقد تبلور هذا الموقف الإيجابي للكاتب أكثر من خلال الشخصيات الفاعلة، في الرواية وهو ما يتلاءم مع منطق التاريخ الذي يقتضي ضرورة التطور الدائم نحو خير الإنسانية . ومن ثم ركز على القيم الإيجابية الكامنة في شخصياته الفاعلة . كالشجاعة والتضحية، والوفاء ونكران الذات، وحب الوطن، وتحاشى التعرض لسلبياتها . أما الشخصيات العدوة فقد جاءت على النقيض من ذلك بأن كشف عن سلبياتها وعيوبها كالخداع والمراوغة والظلم والتسلط .

ووفق هذه الرؤية نجد أن وعي الشخصيات الفاعلة يسير دائما نحو الأفضل، فمن خلال عملها النضالي المتنامي تقوم بقراءة نفسها لتؤكد فعلها الثوري بعد أن تخلصت من عقدة الخوف والانهزامية والخضوع للآخر والامتثال لأوامره . فهي

شخصيات لم تصبح أسيرة هواجسها النفسية بل أصبحت تعبر بكل شجاعة عن مواقفها ومعارضتها للآخر، وبهذا الفعل تكون قد عبرت عن انطلاقها في فضاء الحرية .

المسار الحضاري والصراع بين الأنا والآخر :

لقد تبنى الكاتب استراتيجة خاصة لإدارة الصراع بين الأنا والآخر، وهي استراتيجية تقوم على شيئين :

1 ــ الكشف عن عدوانية الآخر فهو يطبق سياسة القهر وسلب الحقوق سياسة تحرم المواطن من حقه وتعطيه للآخر المستعمر.

2 ــ التركيز على وعي الأنا الوطني بتاريخه وهويته .

ومن هنا جاءت رواية نار ونور لتؤكد فكرة عدم الخوف من الآخر، فهي تحاول من خلال أحداثها أن تطرح ذلك الصراع الذي كان قائما أثناء فترة الاحتلال الاستعماري، وخاصة أيام ثورة التحرير بين [الأنا الوطني والآخر الاستعماري]، وبذلك جاءت أحداثها تدور حول ثنائية الخير والشر . وحتى يعطي السارد لعمله بعده الثوري الفاعل، كان بين لحظة وأخرى يقوم بتأكيد وعي أبطاله، فكلما تطورت الأحداث، تطور ذلك الوعي، فمن خلال الحوار الذي دار بين عمر وسعيد يكتشف المتلقي مدى درجة الوعي التي بلغتها شخصيات الرواية، فها هو عمر يعمل على إثارة حمية سعيد من أجل المقاومة (نمضي متأهبين للنضال ضد هذا الاستعمار النهم الذي تكالب على أرضنا الطاهرة، وداس كرامتها بأرجله العرجاء .وقد غرى بها، فيما غرى به من شعوب، حتى أذاقها من الويلات ألوانا، ومن الحسرات أنواعا، ومن النكبات ضروبا، ومن البؤس والعذاب صنوفا ..

وقد أشقاها وملأها ظلاما، وقد حكم عليها بالجهل، وكانت عالمة موفورة العلم والعرفان . وقد جوعها، وكانت شبعى تكاد تكتظ من الشبع) (10)

فالكاتب يحاول من بداية النص أن يكشف عن طبيعة الآخر الاستعلائية التي ترى بأن الأنا الوطني مفرغ من البعد الحضاري، لذا يجب إدخاله في نسق حضارته، بطريقة أو بأخرى . وفي نفس الوقت يحاول أن يظهر الأنا الوطني بأنه صاحب حضارة عريقة لا تزال حية ولابد لها أن تنتصر في يوم ما .

وبذلك يؤكد حالة التصادم الحضاري الحاصل بين الأنا الوطني والآخر المستعمر، وفي نفس الوقت يظهر بأن وعي شخصياته الفاعلة لا يتم من خلال عملها فقط، وإنما من خلال المكان الحضاري كذلك . فيقوم بإبراز الهوية الحضارية للمكان من خلال اختياره لـــ [حي سيدي الهواري] العتيق في مدينة وهران، والذي اتخذه مكانا لإدارة الأحداث، فهذا المكان التاريخي هو رمز دال على أن هناك حضارة لها بعدها الفكري والعقدي والإنساني، لا تزال قائمة وإن حاول الآخر طمس رموزها . فاستدعاء المكان الحضاري معناه استدعاء تاريخ الأمجاد . ويتجلى الوعي الحضاري من خلال صوت فاطمة الشابة التي انتفضت في وجه الآخر:

(فاطمة في صوت لا يعدم بعض الأسى :

ـــ لعن الله الدراسة في ظل الاستعمار .

ـــ حقا، لأن هذا الاستعمار يريد أن يخدرنا بما يقدم لنا من مواد دراسية لا تخدم إلا مصالحه، ولا تبعث إلا تاريخه، ولا تقوي إلا شخصيته . أما مصالحنا وتاريخنا وحضارتنا، نحن الجزائريين فشأنها شيء آخر عند هذا الاستعمار المتكالب علينا .) (11)

فهذا الصوت النسوي الشجاع يعبر عن تطور وعي فئة من أبناء هذا الوطن، في مرحلة حرجة من تاريخه، فئة أدركت واجبها الوطني فقامت بدورها النضالي، ألا

وهي فئة الشباب، فجاءت في النص شخصيات واعية طموحة شجاعة تدرك مقاصد أفعالها، يدفعها إصرار قوي إلى تحقيق فعل ثوري سيكون له دوره في صناعة صفحة مشرقة من تاريخ الوطن.

وقد اختار الكاتب شباب المدينة نظرا لوعيه ونضجه السياسي لأن المدينة هي مكان رحب لانتشار الأفكار السياسية نظرا لتعدد مشارب سكانها.

والمتتبع لمسار أحداث الرواية يلاحظ أن بطل الرواية وعلى الرغم من صغر سنه قد تخلص من الخوف من الآخر فهو يتميز عن باقي الشخصيات الأخرى بصلابته وتحديه ومقاومته للآخر، لأنه واع بدوره النضالي لامتلاكه أركان الشخصية الوطنية ومقوماتها (العروبة والإسلام والوطن). مما جعله يعمل دائما على تحطيم ادعاءات العدو وتفنيد مزاعمه، وأن كل ما يقوله هو كذب ونفاق ومخادعة للأنا الوطني من أجل تركيعه والسيطرة عليه .

وحتى يكتمل مشروعه الثوري مكنه السارد من التربع على مساحة كبيرة في النص فهو دائم الحضور على مستوى السرد، وإن كان السارد لم يغفل دور الشخصيات الأخرى المساعدة له . فقد جاءت شخصيات الرواية واعية بدورها النضالي، مكتملة النضج تدرك أفعالها، وتقدر واجباتها، تعمل على إشاعة زمن التحرر والانعتاق، وتبشر بقرب حلول زمن الحرية النابض بالحياة المتجددة . واكتمل ذلك الفعل من خلال تلك الأحداث التاريخية التي جعلها المحرك الأساسي للشخصيات في مواجهة الآخر، لأن الكاتب كان يدرك مدى أهمية استحضار التاريخ ليكسب الأنا الوطني قوة أكبر في مواجهة الآخر. وهو ما يؤكده النص من خلال قول خال سعيد عندما بادره قائلا أثناء حوار بينهما : (هؤلاء المستعمرون، يا سعيد، لا يمثلون الإنسان في قليل أو في كثير، والإنسان في مختلف أطواره منهم براء (.....) إن هذا الجيش

الغازي لا يمثل في حقيقة الأمر إلا وحوشا ضارية إن لم تبادرها بالقتل افترستك بلا رحمة .)[12]

هكذا تنكشف تلك الصورة البشعة للآخر في ذاكرة الأنا الوطني . فالآخر المستعمر يحاول بكل الطرق أن يجعل الأنا الوطني يحس بدونيته وتخلفه ووحشيته، فهو شخص تنقصه الفاعلية، فالذات الغربية الاستعمارية تحاول دائما أن تظهر بمظهر ذلك البطل (المحمل بقيم الحق وعليه تقع مسؤولية نشر تلك القيم في الأصقاع النائية)[13] إلا أن الكاتب عمل على إبراز الجانب القبيح من شخصيتها ، من أجل تجريدها من تلك الصفة الحضارية التي تدعيها .

الأنا والتواصل مع التاريخ :

إن طبيعة التسلط المتمكنة في ذات الآخر المستعمر تعمل دائما وبكل ما تملك من قوة لهدم النسق الثقافي للآنا الوطني والهدف من وراء ذلك طمس مقومات شخصيته من أجل زرع نسق ثقافي آخر مكانه وهو النسق الثقافي الإستعماري، ومثل هذا الفعل العدواني لا بد وأن يؤدي بالآنا الوطني إلى أن يواجه ذلك بكل ما يملك . وحتى يستطيع الصمود عليه أن يتحصن بتاريخه وهويته .

وقد أكد النص ذلك من خلال الحوار الدائر بين الشخصيات ليكشف عن مدى وعيها بهويتها وتاريخها فهي في كل المواقف تحاول أن تؤكد انتماءها الحضاري، وتشبثها بهويتها . والمقطع التالي من الحوار الذي دار بين عمر وسعيد يكشف ذلك :

(قال سعيد مؤيدا لكلام صاحبه :

- قتل المستعمرون، ثم قتلوا .. ما أشد بغضهم لنا ،وكراهيتهم لقيمنا وتاريخنا .. فلم يطمسون شخصيتنا إلى هذا القدر ؟ . . ألم يكفهم ما امتصوا من دمائنا

؟.. ثم ألم يكفهم ما نهشوا من لحومنا ؟.. أما كفاهم كل ذلك حتى سموا مدننا وأحياءنا ومدارسنا ومعاهدنا، بأسماء غزاتهم الخاسرين ؟.. أما لو سمو أ لنا مدينة واحدة، أو مدرسة واحدة، أو معهدا واحدا، أو شارعا واحدا، فقط ، اسم شخصية من شخصياتنا الجزائرية المعروفة في التاريخ، لكان جديرا بنا أن نرتاب في أن الاستعمار لايحمل للشعوب التي يستعمرها من البغض الا مقدارا يسيرا . ولكن هأنت ذا تنظر فلا ترى إلا الفرنسية كتابة، وهاأنت ذا تسمع، فلا تسمع إلا الفرنسية حديثا، ولولا كلمات خافتة تتردد هنا وهناك بلغة الضاد . فما كان يحدث لمدينة وهران، لو أن المستعمرين أطلقوا على هذا المعهد الذي نختلف إليه اسم كابن باديس أو الأمير عبد القادر، أو أي اسم من أسماء رجلاتنا الذين سيروا التاريخ ؟ ..

ولكن، سنرى، وسيرى المستعمرون معنا: أي شيء سيبقى في الجزائر ويخلد ،أأسماؤنا أم أسماؤهم)[14] .

فهذا النص يظهر مدى وعي بطل الرواية بهويته، واعتزازه بتاريخه ،كما يؤكد أن فكرة الهوية العربية الإسلامية كانت هي الدافع القوي لمقاومة الآخر، وأنها كانت الحصن المتين لحماية الشخصية الوطنية من الذوبان في فضاء حضارة الآخر المستعمر

ويتجلى هذا الوعي بالهوية وبالتاريخ الوطني أكثر من خلال رد سعيد عن عمر أثناء حواره معه قائلا :

(ـــ ألست ترى معي، يا عمر، أن هذا النور إنما هو نور الحق المبين، أو هو نور الحرية المقدسة التي لا تبرح الشعوب تنشدها فتضحي من جرائها بأغلى ما تملك، وبحسب ما تستطيع وما لا تستطيع .هذه الحرية المذبوحة التي حارب الأمير عبد القادر بالأمس من أجلها خمسة عشر عاما، وحارب من أجلها بوزيان وحارب من

أجلها بوبغلة، وفاطمة ،والمقراني ،وبوعمامة، وسواهم من عظماء رجالاتنا الذين دافعوا عن الحق خير دفاع ،ونشدوا الحرية أحسن نشدان.)[15] .

إن تأكيد الكاتب على الهوية التاريخية من خلال الشخصيات المرجعية (ابن باديس . الأمير عبد القادر . بوزيان . بوبغلة . وفاطمة والمقراني . وبوعمامة) لهو دليل واضح على مدى وعي الشخصيات الفاعلة بهويتها، من جهة، وبأبعاد الصراع وخفياه من جهة أخرى، وفي نفس الوقت تأكيد على أن السياسة الاستعمارية قد فشلت في تشويه تلك الهوية الوطنية . ومن هنا تصبح الهوية الوطنية هي الدافع للمقاومة والمثبت بالوجود، وكأن شخوص الرواية قد تأكد لديهم بأن وجودهم مرتبط بهويتهم، فالهوية الوطنية هي المحك الأساسي للشخوص في هذا النص . وقراءة للشخصيات التي أتى النص على ذكرها تكشف بأن تلك الشخصيات كان لها دورها الفعال في تجسيد صفحة من تاريخ هذه الأمة أيام مواجهتها للآخر المستعمر .

وأن التواصل مع التاريخ على هذه الشاكلة يثير الاعتزاز في النفس فمواقف تلك الشخصيات التاريخية تعد علامات بارزة في تاريخ الأمة . مواقف تحفز الأنا الوطني على مواجهة الآخر المستعمر وتدفعه للصمود ورفض الانسلاخ عن تاريخه وهويته .

إن الرجوع إلى استحضار تلك الشخصيات المرجعية السابقة، هو في حقيقة الأمر رجوع إلى التاريخ حيا، نابضا بملاحم الجهاد، فهي شخصيات قد كرست حياتها لمقارعة الأخر العدو دفاعا عن الهوية والوطن، لذلك فذكرها يثير في نفسية المتلقي مواقف عدائية للآخر المستعمر، أي بمعنى إعادة فتح صفحات تاريخ صراع الأنا الوطني مع الآخر المستعمر، وهو ما كان يقصده السار من رواء استدعائه لها في النص . لأنها الشخصيات (تحيل على سلسلة من التحديدات التي تشتغل كمرجعية

ضمنية للعالم المروي .... . فبمجرد ما نطرح اسما تاريخيا ضمن سياق النص المعاصر ،فإننا نقوم بعملية استحضار للإطار الفضائي الذي يحتوي قصة هذا الاسم في كل إيحاءاتها...) من هنا كان التحديد الزماني نقطة إرساء مرجعية تمد القراء بمفاتيح هامة للقراءة . ويحيل الاسم التاريخي على تحديد سياسي. إنه يحيل على مواقف سياسية/ أيديولوجية قد تكون هي المبرر الرئيس وراء استثمار هذا الاسم داخل نص معاصر.)[16] .

تجليات الهوية الوطنية :

تعد رواية نار ونور من بين الروايات التأسيسية التي ركزت على الهوية الوطنية في مقابل الهوية الاستعمارية، فمسألة الهوية تهيمن على النص . ومن هنا تتأتى أهمية هذه الرواية كخطاب يحاول الكشف عن ذلك الصراع الشرس الدائر بين الأنا الوطني والآخر المستعمر، وما رافق ذلك الصراع من ويلات . لذ يكون عبد الملك مرتاض من خلال هذا العمل قد ساهم في إرساء لبنة أدب الهوية الوطنية الذي يستمد وجوده من تاريخ هذه الأمة، فتاريخ الأمة هو مكون أساسي من مكونات هويتها.

وإذا كان مفهوم الهوية هو (جملة من العناصر المتداخلة والمتشعبة تكشف عن المغزى الحقيقي للشخصية الإنسانية عبر المسارات التاريخية والتحولات الاجتماعية والتغيرات والتطورات الفكرية والثقافية والاقتصادية ...إلخ.)[17]

فإن الهوية الجزائرية قد تكونت منذ حقب تاريخية موغلة في المسار التاريخي للبشرية لذلك لا يمكن زعزعتها أو تغييرها وهو ما جعل المشروع الاستعماري يفشل على الرغم من كل الوسائل التي استعملها . فالهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري هي (هوية قديمة تشكلت ملامحها منذ زمن بعيد، إلا أنها لم تع ذاتها إلا عندما

واجهت الاستعمار الغربي .ففي ظل هذه المواجهة الطويلة مع الآخر المستعمر، واصطدامها بثقافته المغايرة، تبلور وعي الهوية العربية الإسلامية في المغرب العربي، وأضحى المحرك الأول للتصدي للاستعمار وثقافته المغايرة) [18]. وقد عمل السارد في هذه رواية من البداية وبإصرار على إظهار مدى قوة الصراع بين الهويتين.

والمتتبع لروايات مرحلة التأسيس يلاحظ مدى تركيزها على الصراع بين الأنا الوطني والآخر المستعمر . وهي حقيقة تاريخية أوجدها ذلك الاحتقان العدائي للآخر بسبب تسلطه وعمله طيلة قرن ونيف على تحطيم الهوية الوطنية بكل الوسائل بما في ذلك استعمال العنف المسلح، فالآخر المستعمر عمل من البداية على تجريد الأنا الوطني من رموز هويته . يقول ألفريد رامبو الذي كان وزيرا للتعليم عام 1897 (يجب أن نضمن السيطرة للغتنا، وأن تدخل في أذهان المسلمين الفكرة التي نحملها نحن أنفسنا عن فرنسا ودورها في العالم، وأن نحل محل الجهل والأفكار المسبقة المنغلقة، المفاهيم المدققة للعلم الأوروبي) [19].

بهذا الأسلوب القهري المتعالي يحاول الآخر المستعمر أن يمحو هوية الأنا الوطني من أجل نشر ثقافته ولغته، وتكريس هويته . ولكن تلك الشراسة الاستعمارية كانت في المقابل عاملا مساعدا للأنا الوطني ليتحصن أكثر بهويته ويدافع عنها بكل ما يمكلك . (ففي المراحل التي يحتدم فيها الصراع لدرجة يغدو فيها كيان فئة أو وطن أو أمة معرضا للتهديد أو الاختراق يعبر خطاب الهوية عن ذات منجرحة ومتشبثة بثوابتها الجوهرية لكي تتفادى الاقتلاع والاحتواء .) [20]

فالأفعال الاستعمارية الظالمة كانت سببا في تفجير الطاقة الثورية لدى الآنا الوطني .

فالصراع الذي نشب بين أستاذ الأدب الفرنسي وتلميذه سعيد في الرواية هو صراع بين هوية استعمارية تعمل جاهدة لترسيخ فكرها، وهوية وطنية تعمل بكل ما تملك للدفاع عن نفسها . ويظهر الصراع تلك الأساليب المراوغة التي يستعملها

الآخر المستعمر من أجل استدراج الآنا الوطني لولوج فضائه التعلمي لكي يتمكن من تشويه هويته وادخاله في خدمته . ولكن وعي الآنا الوطني الذي تشكل عبر ثقافة وطنية عربية إسلامية كان مدركا لتلك الحيل، واعيا وبمقومات هويته . فأنا سعيد بطل الرواية هي أنا تختصر كل مكونات الأمة الجزائرية، ولذلك فهي أكثر إدراكا لهويتها هوية الآخر الأجنبي، فالهوية مسألة وعي .

ومن هذا المنطلق جاء تأكيد السارد على الهوية الدينية لشخصية سعيد في لفتة بارزة في الرواية، تحمل دلالة قوية، وذلك عند ما جعله يؤدي الصلاة قبل تنفيذ العملية الفدائية (ص 49 الرواية)، فعمل مثل هذا يؤكد بأن هوية الإنسان لا تتحدد (فقط بمعطيات عالم الواقع الذي يعيشه حسيا بل تتقوم كذلك بمعطيات عالم "الغيب" الذي يحياه روحيا) [21] .

فالدين واللغة يعتبران من أبرز مكونات هوية الفرد الجزائري .

وعلى الرغم من أن الوعي السياسي لدى الشباب في تلك الفترة كان محدودا إلا أن الروائي يحاول أن يظهر عكس ذلك فقد منحهم وعيا كبيرا في الأمور السياسية . مما جعل مواقفهم السياسية يغلب عليها الاندفاع العاطفي والحماس الوطني وهو ما أملته الثورة في نفوس الجزائريين أثناء اندلاع الثورة. والحوار التالي يبرز عمق التصادم بين الأنا والآخر :

(الأستاذ العجوز في انزعاج باد:

ـــ ماذا ؟ .. أنت تجهل لغتك ؟ .. ما هذه اللغة التي لا تبرح لها من الجاهلين ؟ .. إني أراك منها في حرج شديد، وإني أراك عليها في حزن كثيب ..

ـــ سعيد في لهجة الشاب الشجاع، والجزائري الصراح :

ـــ العربية، يا أستاذ ..

الأستاذ العجور في فتور واستهزاء :

ـــ أو لا تبرحون مؤمنين بأن العربية لغتكم ؟ ..

ـــ بلى يا أستاذ .. إنما لغتنا التي لا نفتأ نؤمن بأن وجودها مرتبط بوجودنا، ومصرنا رهن بمصيرها ..

الأستاذ في شبه ازدراء :

ـــ ولكنها لغة ميتة .)[22]

يحاول السارد من خلال الحوار السابق رسم صورة الآخر المستعمر في مقابل الأنا الوطني . فجاء الأول في صورة المتسلط العدواني، وجاء الثاني في صورة الوطني المدافع عن هويته وكيانه . فالحوار الذي دار في النص بين الأستاذ الفرنسي وسعيد تحكمه الأيديولوجية الاستعمارية التي تعطي للآخر المستعمر كل الحق بأن يقول ما يريد على حساب حرية الأنا الوطني الذي يجد نفسه في موقف المدافع عن كيانه ووجوده . لذا يعمل على مبارزة الآخر بواسطة الكلام وإن كان هذا الفعل لا يجدي نفعا بسبب تعنت الآخر فمنطق القوى الذي يحرك الآخر هو الذي استفز الأنا الوطني ودفعه إلى مواجهة الآخر، رغم ما استعمل من وسائل ترهيبية لجعل الأنا تخضع له .فاللغة العربية تعتبر أحد المكونات الأساسية التي تقوم عليها هوية الأنا الوطني، فهي من مقدساته، وهو ما دفع الآخر المستعمر من البداية إلى العمل على محاربتها بكل الوسائل . (إن تزييف الذات وخلخلة الهوية العربية الإسلامية التي تشكل درعا أيديولوجية تحصينيا إزاء الآخر، يصبح شكلا من أشكال الاحتواء الاستعماري للشخصية الوطنية)[23] .

فالحوار السابق يكشف عن لغتين متضادتين متعارضتين لغة سعيد الشاب الثائر على الأوضاع السائدة في وطنه بسبب الوجود الاستعماري الفرنسي، ولغة ذلك الأستاذ الفرنسي المتشبع بالأفكار الاستعمارية، وكل لغة تتكئ على رصيد ثقافي تنتسب إليه. وهو ما جعل الحوار السابق يكشف عن خطابين متضادين خطاب

استعماري يقوم على المخادعة والمراوغة لإيهام الأنا الوطني بأن الآخر حريص على مستقبله العلمي وأنه يسدي له النصح بدون مقابل. وخطاب وطني يكشف عن وعي الشباب الجزائري بحقيقة الصراع الدائر في وطنه سواء أكان ذلك الصراع سياسي أم ثقافي .

إن السارد ومن خلال الحوار يكشف عن محاولة تزييف للهوية الوطنية بطريق بشعة من إخراج الفرد الجزائري من تاريخه وحضارته ومسخ وعيه ، وعندما يصبح بدون تاريخ بدون حضارة يمكن للآخر إعادة تشكيل هويته وفق المنظور الاستعماري وبذلك تمسخ الشعوب . فالأيديولوجية التي يتبناها الآخر هي أيديولوجية قهرية تعمل على التضييق على الأنا الوطني ومصادرة حقه في الدفاع عن نفسه بحجة أنه متخلف حضاريا، ولازال لم يرتق إلى مستوى الإنسان المتحضر . ولكن بطل الرواية يظهر وعيا كبيرا بهويته، ومن هنا كانت قوة المقاومة لديه أكبر، وبذلك أفشل مخططات الآخر الهادفة إلى ترويضه . فالحوار السابق يكشف عن لغتين متضادتين متعارضتين لغة سعيد الشاب الثائر على الأوضاع السائدة في وطنه بسبب الوجود الاستعماري الفرنسي، ولغة ذلك الأستاذ الفرنسي المتشبع بالأفكار الاستعمارية، وكل لغة تتكئ على رصيد ثقافي تنتسب إليه .وهو ما جعل الحوار السابق يكشف عن خطابين متضادين خطاب استعماري يقوم على المخادعة والمراوغة لاهام الأنا الوطني بأنا الآخر حريص على مستقبله العلمي وأنه يسدي له النصح بدون مقابل . وخطاب وطني يكشف عن وعي الشباب الجزائري بحقيقة الصراع الدائر في وطنه سواء أكان ذلك الصراع سياسي أم ثقافي .

فالأستاذ الفرنسي كان محكوما بتلك الثقافة الاستعمارية المتعالية، التي ترى الآخر مجرد شخص متخلف يجب ترويضه من أجل أن يسير مع القطيع، فهو يظهر علنا تجاهله لثقافة الأنا الوطني، بل يعمل جاهدا بأن لا يسمح لها بأن تعبر عن نفسها لأنه

لا يريد لها أن تكون . إلا أن وعي الأنا، بخلفيات الصراع وبتلك الوسائل التي يستعملها الآخر لتدمير مناعته من أجل إخضاعه والهيمنة عليه، جعل الصراع يحتدم أكثر ويتشكل بكل الألوان .

إن المستعمر ومهما كان (حضاريا فسيظل استعماريا يستهدف تذليل الشعب وتركيعه)[24] فقد حاول المستعمر من خلال أيديولوجية التهديم أن يمسخ المواطن الجزائري، ويجعل منه مجرد تابع له منقطع الهوية ومنعدم الحضارة، وبعبارة أوضح مجرد قطيع من غنم يساق وفق أهواء سيده. (لقد شكل العنف المادي واللغوي الأداة الأساسية التي بني عليها الاستعمار خطابه الأيديولوجي، واستعمل القوة المادية لتحطيم الجسد، وإعاقة مسار التحرر)[25].

ومن بين الأساليب الشريرة التي استعملها الآخر المستعمر محاولة منه تهديم الكيان اللغوي للأنا الوطني، استعمال اللهجات الدارجة فقد كشف النص عن تلك المحاولات الشريرة التي حاول من خلالها الآخر المستعمر تمرير مشروعه، ففي خضم الصراع الدائر بين الأنا الوطني والآخر المستعمر يظهر صوتا ثالثا محتميا بالمظلة الاستعمارية وهو صوت المعلمة اليهودية . التي اسند إليها تدريس اللغة الدارجة لطلبة الثانوية بدل اللغة العربية الفصحى . إن إسناد هذا الفعل لمعلمة يهودية له دلالاته المتعدد، فهي شخصية تفصح عن هوية يهودية معادية للهوية الوطنية، لأنها تحمل مكونات سلوكية معروفة عبر تاريخها الطويل وهي الغدر والخديعة والتحايل . فهي رمز لكيان شرير مخادع يكن عداوة تاريخية للأنا الوطني بدأت تظهر ملامحها منذ أن وطأت أقدام الآخر المستعمر هذه الأرض.

إن هذه اللفتة من السارد تعبر عن مدى إدراكه لأبعاد الصراع والأوجه التي يتلون بها والاتجاهات التي يأخذها . فترويج الآخر للهجات الدارجة يعني أنه كان (يعي تماما أن استخدام اللهجات الدارجة كلغة يجرد بها الفرد والمجتمع من حصانته

الثقافية واللغوية، ويجعله لا يستطيع أن ينافس بها اللغة الفرنسية بدارجة مختلطة الكلمات والعبارات وليس لها من خصائص اللغة سوى جزء بسيطا من الكلام المحكي الدارج .)[26].

إن هذا الأسلوب الاستعماري كان الآخر يهدف من ورائه تزييف هوية الأنا من أجل تجريده من أية قوة يمكنه أن يتحصن بها للدفاع عن نفسه .

إلا أن وعي الأنا الوطني المتزايد أدى إلى فشل تلك السياسة، مما جعل الآخر المستعمر، يلجأ إلى سياسة العنف والقهر والقتل بعد أن استنفذ كل الأنواع الدعائية التي يمتلكها، وهو ما زاد في المقابل من تأجيج لهيب الثورة في نفس الأنا الوطني . لقد أدرك الأنا الوطني بعد مدة من النضال أن العنف الثوري هو وحده القادر على تثبيت الهوية وصيانتها من الاندثار، فالثورة على الآخر أصبحت هي الهدف لأن بدون ذلك لا يمكن للأنا الوطني أن يحافظ على هويته وحضارته ومقدساته .

ويتأكد ذلك في النص من خلال وعي سعيد بمخططات الآخر (فلا تؤمنن، يا عمر، بما يزعمون . فالعنصرية الضارية هي التي تغريهم بقتلنا، والحقد الأسود هو الذي يدفعهم إلى ابادتنا . فلنقتل إذن كما يقتلون .)[27] .

بهذا المنطق يظهر السارد مستوى الوعي السياسي الذي بلغه الشباب الجزائري أثناء الثورة . وهو وعي لم يبق محصورا في التحريض على الثورة وتجنيد الجماهير من أجل ذلك، بل تعداه إلى الوعي بالتاريخ الوطني والقومي والتشبث به والدفاع عنه . فالشخصيات الفاعلة في الرواية تظهر اعتزازها القوي بهويتها وشخصيتها .

الرواية وتقنية الحوار:

ما يلفت النظر في هذه الرواية أنها تقوم على الحوار بين شخصياتها وتلك هي السمة الغالبة عليها .فالصوت الغالب في هذه الرواية لم يكن صوت الكاتب وحده بل تعددت الأصوات فيها، مما جعل شخصياتها تقدم نفسها كشخصيات مستقلة

وذات سلطة وإرادة في التعبير عن ما تريد دون أن تجد عائقا أمامها يمنعها من التعبير عن نفسها، فهي تبدو في الكثير من الأحيان خارجة عن سلطة الراوي الممثل الحقيقي للكاتب بل قائمة بذاتها حاملة لخطابها الخاص بها والمعبر عن أفكارها ، لذلك فملامحها لا تتحقق من خلال وصف الراوي لها، وإنما من خلال ما يصدر عنها من تلفظ أثناء محاورتها للآخرين . وأن اعتماد الكاتب هذه التقنية يرجع في نظرنا إلى إشكالية الصراع بين الأنا والآخر .

فعبد الملك مرتاض قد اصطدم أثناء كتابته للنص بالصراع العنيف بين الأنا والآخر، ووقف مترددا في كيفية إدارة تلك المعركة بينهما إلا أن العاطفة الوطنية فعلت فعلها في نفسه مما دفعه إلى فتح مجال التحرك لشخصياته الفاعلة لتتحرك بإرادتها وتعبر عن مقاصدها من خلال محاورتها للآخر، ومواجهته بكل ما تملك، فتعددت الأصوات بتعدد الشخصيات .

بعد أن أدرك أن أحداث روايته تتطلب مشاركة شخصياتها لأنها بدون ذلك لا تتمكن من القيام بدورها إلا إذا امتلكت حرية التعبير عن نفسها، ومن هنا وجد نفسه أسير أحداث وشخصيات روايته ووقع فيما ذهب إليه ميشال بوتور في قوله : (ليس الروائي هو الذي يضع الرواية، بل الرواية هي التي تضع نفسها بنفسها، وما الروائي سوى أداة إخراجها ومولدها)[28]

لذا جاءت تقنية الحوار في هذه الرواية ترتكز على فتح المجال للشخصيات للتعبير عن نفسها وإبلاغ الآخر بما يدور في داخلها، سواء أكان هذا الآخر صديقا أم عدوا . وهذا الفعل التقني حتم عليه أن يهتم بالحوار الخارجي، الذي هو في حقيقة أمره توجه نحو الآخر من خلال اللغة لأن (فهم الآخر لا يمكن تصوره إلا على أساس حواري)[29] .

فالذوات لا تتفاهم إلا من خلال الحوار ولا تتعرف عن بعضها البعض إلا من خلاله . فالحوار الخارجي هو الذي يكشف (عن الملامح الفكرية للشخصيات وتحديد مواقفها من أحداث الرواية، ومن القضايا الاجتماعية والسياسية التي تطرحها أحداث الرواية .)[30] وهذا ما توخاه الكاتب في روايته فجعلها رواية تعدد الأصوات .

وفي الأخير لا يسعنا إلا أن نقول بأن [رواية نار ونور] هي رواية قامت على فكرة الصراع والتصادم بين الأنا الوطني والآخر المستعمر . لذا حاول كاتبها التركيز أكثر على ظروف الصراع التي كان يعيشها الفرد الجزائري آنذاك وما كان يتعرض له من اضطهاد وقهر وعدوان ومسخ لمقومات هويته. دون أن يغفل الكشف عن مقاومته للآخر، بكل ما يملك واحتمائه بثوابته الأصيلة من دين ولغة ودفاعه عنها .ومهما قيل في هذه الرواية فإنها تبقى كوثيقة تشهد عن فترة الصراع بين الأنا الوطني والآخر المستعمر، وتعمل على ترسيخ الهوية الوطنية .

الهوامش :

---

[1] ــ بشير بويجرة الزمان في الرواية الجزائرية الحديثة مخطوط دكتوراه دولة جامعة وهران ص 328.

[2] ــ محمود أمين العالم وآخرون الرواية العربية بين الواقع والأيديولوجية دار الحوار، سورية، ط1،1986 ص64.

[3] ــ طه وادي الرواية والسياسة دار النشر للجامعات المصرية ط1، 1996 ،ص9.

[4] ــ رضوان عاشور الروائي والتاريخ مجلة الطريق عدد3، 1981 ص 134.

[5] ــ سعيد علوش الرواية والأيديولوجية دار الكلمة للنشر، بيروت، ط2، 1983 ص25.

[6] ــ تنظر رواية نار ونور ص 74 ،75.

[7] ــ الرواية ص 76.

[8] ــ عبد الله إبراهيم المتخيل السردي المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص5.

[9] ــ الرواية، ص 72.

[10] ـــ الرواية، ص 42.

[11] ـــ الرواية، ص 20.

[12] ـــ الرواية ،ص 36.

[13] ـــ عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة ،المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط1، 2003 ص70.

[14] ـــ الرواية ص 19/18.

[15] ـــ الرواية ص 39/38.

[16] ـــ سعيد بن نكراد، سيميولوجية الشخصيات السردية، دار مجدلاوي، ط1، 2003 الأردن، ص110.

[17] ـــ مجلة نقد وفكر عدد 21 ص 10.

[18] ـــ محمد صالح الهرماسي مقاربة في إشكالية الهوية في المغرب العربي المعاصر دار الفكر العـــربي المعاصر بيروت، ط1، 2001 ، ص16 .

19

[19] ـــ محمد الميلي وضع العربية خلال العهد الاستعماري مجلة اللغة العربية عدد ممتاز2005 ص48.

[20] ـــ محمد نور أفاية الهوية والاختلاف إفريقيا الشرق المغرب ص8.

[21] ـــ مجلة نقد وفكر عدد45 ص 2.

[22] ـــ الرواية ص 9.

[23] ـــ علال سنقوقة المتخيل والسلطة منشورات رابطة كتاب الاختلاف، الجزائر، ط1، 2000 ص99.

[24] ـــ واسيني الأعرج اتجاهات الرواية العربية في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986 ص17.

[25] ـــ المتخيل والسلطة، ص 104.

[26] ــ صبحي حسان النظام التربوي الاستعماري في الجزائر، رياض العلوم للنشر، ط1، 2005 ص107.

[27] ــ الرواية 45.

[28] ــ ميشال بوتور نحو رواية جديدة منشورات عويدات، بيروت، ط1982/2، ص 14/13،

[29] ــ زياد العوف الأثر الأيديولوجي في النص الروائي مؤسسة النوري، سورية، ط1993/1 ،ص155،

[30] ــ محمد رياض وتار شخصية المثقف في الرواية السورية مخطوط رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ص 179 .